

الأهمية التاريخية لشواهد قبور المعلاة

بمكة المكرمة عصر سلاطين المماليك

د. يسرى زيدان (*)

تمهيد :

اختصت مقبرة المعلاة بمكة المكرمة بالعديد من الشواهد التي احتفظت بمعلومات تاريخية غزيرة ، اعتمد عليها العديد من المؤرخين فى تصحيح بعض المعلومات التاريخية المتصلة بأصحابها من العلماء وغيرهم ، أو بالاعتماد عليها فى إضافة بعض المعلومات التاريخية للمترجم لهم ، دونت على هذه الشواهد ، وأفادت فى الإحاطة بتاريخ مكة المكرمة خلال عصر سلاطين المماليك بصفة خاصة .

وقد لاحظت تفرد هذه المقبرة الأثرية بهذه المعلومات التاريخية من خلال اطلاعى على مصادر تاريخ مكة المكرمة ، وجمعت كل الروايات المتصلة بهذا الموضوع ، ثم وقفت على بحث للأستاذ الدكتور حسن الباشا عنوانه "أهمية شواهد القبور كمصدر لتاريخ الجزيرة العربية فى العصر الإسلامى ، مع نشر مجموعة الشواهد بالمتحف الأثرى بكلية الآداب - جامعة الرياض" فى كتاب بعنوان "دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية" وعند وقوفى على هذا البحث القيم وجدت أن بحثى لا يتعارض أبدا مع بحث سيادته ، حيث إن الأستاذ الدكتور حسن الباشا نشر أربعة وعشرين شاهدا عثر على معظمها - كما يذكر سيادته - فى منطقة بنى سليم التابعة لإمارة مكة ، ودرسها دراسة أثرية ، وكلها لا تتجاوز تاريخيا القرن الرابع الهجرى ، وركز سيادته على ذكر النص والتعليق عليه ببيان طول الشاهد وعرضه

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ووكيل كلية دار العلوم لشئون الدراسات العليا والبحوث - جامعة القاهرة .

الأهمية التاريخية لشواهد قبور المعلاة

وسمكه ، ونوع الخط ، وما جاء من تصحيف فى الكتابة^(١) . وهذا العمل القيم يختلف كلية عن دراستى من كل الوجوه : مكانا وزمانا ودراسة ومنهاجا .

وظاهرة الكتابة الكثيرة على شواهد القبور لم تعرف بهذا الشكل إلا ببلاد الحجاز ، وهناك إشارات قليلة لوجودها فى غير بلاد الحجاز ، منها ما أورده المؤرخ الإدفوى من نقله لتاريخ وفاة العالم الأيب على بن هبة الله الأرمنى من لوح على قبره^(٢) ، وما نقله من تاريخ وفاة ونسبة العالم الطبيب مبادر بن نجيب الأسوانى من لوح بالخط الكوفى على قبره^(٣) .

وما شاهده المؤرخ ابن الجزرى سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م بمقابر دمشق من أبيات طويلة مكتوبة على قبر منها ، جاء فيها :

أيارب قد أنزلتني خير منزل أقيم به حتى تقوم قيامتى
أضفت بك الآن ارتجى منك أن يكن قرارى بأن يحو جميع إساءتى
وحاشا كريم أن يكون مضيفه مهان وحسن الظن فيك وسيلتى^(٤)

ومن ذلك ما رآه المؤرخ زين الدين عمر الشماع فى منتصف القرن التاسع الهجرى بحلب من لوح رخامى طويل مكتوب عليه أيضا^(٥) .

أما فى بلاد الحجاز فإن هذه الظاهرة واضحة تماما ، فما من عالم أو أديب أو تاجر مشهور أو شخصية معروفة إلا حفظت هذه الأحجار اسمها ولقبها وكنيتها ، وبعض جوانب من حياتها .

ويبدو أن للمجاورة بمكة المكرمة دورا فى عظم هذه الظاهرة ، حيث إن النية كانت تتجه إلى بيان فضل هؤلاء المجاورين والعناية بتاريخهم وتسجيل بعض مآثرهم ، وامتد ذلك إلى كل مشاهير من ماتوا ودفنوا بمقبرة مكة المكرمة ، لا فرق فى ذلك بين مكى وغيره ، ولا بين رجل وامرأة ، حيث إن بعض النساء حظين بترجمة على حجر قبرهن بمقبرة المعلاة بمكة المكرمة^(٦) .

مقبرة المعلاة^(٧) بمكة المكرمة :

تعد مقبرة المعلاة بمكة المكرمة من أشهر وأبرز مقابرها ، لما حوته من سادات الصحابة والتابعين وكبار العلماء والصالحين ، وتضم هذه المقبرة قبر السيدة خديجة^(٨) زوج النبي ﷺ وتقع مقبرة المعلاة فى الجهة الشرقية من المسجد الحرام ، وكان أهل مكة فى الجاهلية وفى صدر الإسلام يدفنون موتاهم بشعب مقبرة المعلاة يمينا ويسارا فى جنبى الوادى ، ثم حول الناس قبورهم إلى الشعب الأيسر لقول رسول الله ﷺ "نعم الشعب ، ونعم المقبرة"^(٩) .

وبالإضافة إلى هذه المقبرة التى بقيت حتى يومنا ، فإنه كانت هناك مقابر أخرى بمكة ، منها المقبرة العليا بحائط خرمان المعروف اليوم بالخرمانية وفيها قبور آل عبد الله بن خالد بن أسيد بن أمين بن عبد شمس وآل سفيان بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم^(١٠) .

ومنها مقبرة المهاجرين بالحصاحص عند الثنية التى يتوجه منها إلى المعلاة وتعرف هذه المقبرة بالحجون^(١١) الأول^(١٢) ، وسبب تسميتها باسم "مقبرة المهاجرين" هو دفن بعض صحابة رسول الله ﷺ بها بعد أن عزموا على الهجرة من مكة وخرجوا منها نحو المدينة ، فأدركهم الموت بعد خروجهم من مكة بقليل ، فدفنوا فى هذه المقبرة التى عرفت باسمهم^(١٣) .

وبمكة أيضا مقبرة الشبيكة ، وهى مشهورة عند الناس لما حوته من أهل الخير الغرباء وغيرهم^(١٤) . وكان الناس يدفنون موتاهم بهذه المقابر^(١٥) . وقد بقيت مقبرة المعلاة بمكة المكرمة حتى الآن ، بينما تلاشت باقى مقابرها .

وقد اعتنى بمقبرة المعلاة عناية كبيرة ؛ فكان لها سور^(١٦) ، يضم مقابرها التى كان بعضها معروف باسم بعض بيوتات مكة المكرمة مثل : بيت ابن فهد ، والشيبانيين^(١٧) . وأقيمت السبل عند مقبرة المعلاة ، وغيرها ، ومنها : سبيل لامرأة متصوفة تسمى أم سليمان (ت ٨٠٢هـ / ١٣٩٩م) أقامته "عند ترتيها بالمعلاة"^(١٨) وسبيل عطية المطير فى طرف المقبرة من أعلاها عند البئر التى يقال لها بئر

الأهمية التاريخية لشواهد قبور المعلاة

الطواشى^(٢١) . وسبيل القاضى زين الدين عبد الباسط (ت ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م) "تأظر الجيوش"^(٢٢) المنصورة فى سنة ست وعشرين وثمانمائه^(٢٣) .

كما أقيمت الآبار عند مقبرة المعلاة ، ومنها : بئر الطواشى عند طرف المقبرة من أعلاها^(٢٤) ، وبئر أم سليمان المتصوفة عند تربتها^(٢٥) . إلى غير ذلك من الآبار الموجودة فى المعلاة أو الموجودة عند مقبرتها^(٢٦) . ولعل ما حدث بمقبرة المعلاة عند دفن أمير مكة المكرمة بركات بن حسن بن عجلان الحسنى^(٢٧) (ت ٨٥٩هـ/ ١٤٥٤م) بها يعطينا فكرة عن هذه المقبرة فى عصر سلاطين المماليك، إذ يذكر العز بن عمر بن فهد أن الأمير بركات صلى عليه عند باب الكعبة ودفن بالمعلاة بالقرب من قبتي جديه : عجلان وقتادة "فى فسقية عملت له، وبنى على قبره قبه ، وبنى إلى قربها سبيل ، وجعل فى القبة قراء يقرعون يوم الجمعة ، وأوقف على ذلك وقفا ولده السيد محمد الذى خلفه فى إمرة مكة"^(٢٨) ويذكر ابن فهد أن أمير مكة السيد بركات دفن بالفسقية التى أعدت له بالمعلاة^(٢٩) .

وكان لابنه السيد محمد بن بركات^(٣٠) (ت ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م) آبار شتى ، منها بئر بالمعلاة^(٣١) ، وعندما توفى بنى عليه قبة عظيمة شاهقة ليس فى المعلاة مثلها^(٣٢) .

وجرت العادة أن تبنى القباب على قبور الأمراء والأعيان بمقبرة المعلاة قبل عصر سلاطين المماليك وفى أثنائه^(٣٣) .

وقد اعتنى بالطرق المؤدية إلى مقبرة المعلاة بتمهيدها وتسهيلها للسير ، ومن الأخبار المتصلة بذلك ما جاء سنة ٨١٧هـ/ ١٤١٤م من قيام بعض المجاورين بتسهيل طريق من الثنية التى تهبط إلى مقبرة المعلاة غير الطريق المعتاد "وتسهيلها بعد أن كانت خربة ضيقة ، وصار الناس يسلكونها أكثر من الأولى"^(٣٤) .

أما عن الأحجار الشاهدية فقد نقل ما تبقى منها بمقبرة المعلاة إلى قصر خزام بجدة وسجلت ووثقت ، وبلغ عدد الشواهد المنقولة ٥٨٦ حجرا شاهديا منقوشا ،

وعادة ما كان الحجر مستطيلاً غير منتظم الأضلاع ، ويؤخذ من جبال المنطقة ، وينقش اسم المتوفى بخط غائر أو بارز^(٣٣) .

نقاشو أحجار مقبرة المعلاة :

تخصص عدد من المسلمين فى نقش أحجار القبور ، وتوارثت بعض الأسر هذه المهنة ، وعرف هؤلاء بالنقاشين الكاتبين ، ومنهم : محمد بن بركات بن أبى حرمى الذى يقول عنه الفاسى : "كان كعمه يكتب الوثائق وينقش أحجار القبور عليها ، وعلى خطهما وضاءة"^(٣٤) . ومنهم عبد الرحمن بن فتوح بن بنين الذى وصفه ابن فهد بالكاتب^(٣٥) . وهو مكى سمع بمكة وبدمشق وببغداد ، وكان يسجل على القضاة بمكة ، ويكتب الوثائق والمبيعات "وأحجار القبور والدور والمساجد وغير ذلك ، وعلى خطه وضاءة"^(٣٦) .

ويبدو أن خطوط هؤلاء أو نقوشهم كانت معروفة أو أنهم كانوا يدونون أسماءهم على ما كتبوه أو نقشوه بخطوطهم وبأيديهم ، ويؤخذ ذلك من ترجمة الفاسى لأحد العلماء وقوله : "ومن حجر قبره نقلت نسبه ووفاته وهو بخط محمد بن بركات بن أبى حرمى ، وترجمه بالسعيد الشهيد ، وترجم أباه بالفقيه الشهيد"^(٣٧) كما أنه تعرف على خط عبد الرحمن بن فتوح بن بنين بحجر قبر بالمعلاة^(٣٨) .

شواهد قبور المعلاة والتأريخ للأعلام :

حفظت شواهد قبور المعلاة للتأريخ الإسلامى أسماء عدد ضخم من علماء الأمة وأمرائها ومشاهيرها بصفة عامة ، وسجلت نسب هؤلاء وكناهم وألقابهم ووظائفهم ، وكان بعضها مختصراً ، بينما كان البعض الآخر مطولاً بدليل قول الفاسى وهو يترجم للأمير ناصر الدين محمد بن بهاء الدين أصلم (ت ٧٦١هـ/١٣٥٩م) : "نقلت وفاته من حجر قبره بالمعلاة ، وترجم فيه بتراجم كثيرة"^(٣٩) .

الأهمية التاريخية لشواهد قبور المعلاة

ويبدو أنه قد بدئ في انتشار ظاهرة الكتابة على شواهد القبور بالمعلاة بمكة المكرمة منذ القرن الخامس الهجري ، حيث وُجد حجر لأحد الأعلام المتوفين سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م ودون عليه أنه توفي في السادس من شعبان^(٤٠).

ثم شاعت مع مرور الوقت ، بدليل أن الملك المسعود بن الملك الكامل بن العادل صاحب اليمن ومكة^(٤١) (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) قد أوصى أن يقبر بين الغرباء في مقبرة أهل مكة ، المعلاة^(٤٢) ، وأن يكتب على قبره "هذا قبر الفقير إلى رحمة الله يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب" ففعل به ذلك^(٤٣) .

ولم ترد أخبار أخرى عن وصيته بكتابة شيء على شواهد القبور ، وإنما كان العمل نابعا من جمهور المسلمين الراغبين في الترجمة للمشاهير بكل صدق وأمانة بدليل قول الفاسي عن حسين بن علي القاشاني (ت ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م) : "من حجر قبره كتبت ما ذكرته وما عرفت من حاله سوى هذا"^(٤٤).

وقد زخرت المصادر التي تناولت تاريخ مكة المكرمة بالترجمة للمئات من الأعلام في كل التخصصات العلمية ، ومن غيرهم ، وجاء كتاب "العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين" للإمام العلامة الحافظ تقي الدين محمد الفاسي المكي المالكي (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٨م) على رأس هذه المصادر ، إذ إن المؤرخ الفاسي اعتمد في كتابه ترجمة رجالات كتابه على ما دون على الحجارة وألواح الرخام بقبور مقبرة المعلاة ؛ كانت الأساس - في بعض الأحيان - لمعرفة هؤلاء العلماء ؛ إذ خلت المصادر من الترجمة لهم .

ومن ذلك : ترجمة محمد بن عبد الله بن عبد الحق بن أحمد بن محمد المصري ، علم الدين المشهور بالوراب (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م) التي نقلها ابن فهد وأودعها كتابه : "تحاف الوري"^(٤٥) و"الدر الكمين بذي العقد الثمين" ذاكراً أنه هكذا رأى بحجر قبره بالمعلاة^(٤٦) . ومنها : ترجمة محمد بن أبي العباس بن محمد بن عبد الله الهاشمي، أبي الحسن الذي لم يذكر ابن فهد تاريخ وفاته لخلو حجره منه ، فكانت ترجمته مختصرة : "هكذا رأيت مكتوبا في حجر بالكوفي بالمعلاة ، ولم يذكر

تاريخ وفاته^(٤٧) . ومنها ترجمة محمد بن محمد بن محمد بن حجر المصرى (ت ٧٨٥هـ/١٣٨٣م) الذى دفن بالمعلاة ورأى ابن فهد ترجمته مكتوبة على حجر قبره بالمعلاة ، وذكر أنه ابن عم شيخه قاضى القضاة شهاب الدين ابن حجر^(٤٨) .

وهناك تراجم كثيرة مماثلة لما سبق خلدت أسماء عدد ضخم من العلماء وغيرهم من كافة أنحاء العالم الإسلامى ، نزلوا مكة وتوفوا بها ودفنوا فى مقبرتها بالمعلاة^(٤٩) . ولا شك فى أن هذه المعلومات المأخوذة من هذه الشواهد مفيدة فى الكشف عن بعض النواحي التاريخية والحضارية وخاصة الناحية الفكرية .

ويشهد كتاب الفاسى : "العقد الثمين" على أهمية هذه الشواهد ولذا كثر عنده "ومن حجر قبره لخصت هذا"^(٥٠) و"هكذا وجدته مذكورا فى حجر قبره بالمعلاة"^(٥١) و"نقلت وفاته من حجر قبره" ومنه نقلت ما ذكرته من نسبه^(٥٢) و"ومن حجر قبره كتبت هذه الترجمة"^(٥٣) و"على قبره لوح رخام فيه اسمه وتاريخ وفاته"^(٥٤) .

وقد اختصت هذه التراجم بذكر تاريخ الوفاة ومكانه وهو ما لم يقف عليه بعض المؤرخين فى الترجمة لهؤلاء المشاهير فى كتبهم^(٥٥) كما اختصت بذكر بعض النعوت المفيدة لدراسة أحوال الشخصية المترجم لها ومنها ما جاء فى حجر قبر محمد ابن محمد ، بدر الدين أبى عبد الله الأقصرائى المتوفى سنة ٧٧٣هـ/١٣٧١م والمدفون بالمعلاة وترجم فيه "بالشيخ العلامة مفتى المسلمين وخطيبهم وترجم والده بالعلامة"^(٥٦) . كما ترجم على بن أبى بكر محمد العقيلى (ت ٧٢٨هـ/١٣٢٧م) بحجر قبره بالمعلاة "بالفقيه الصالح العابد الناسك القطب" وقبره مشهور بالمعلاة "والناس يتصدرونه بالزيارة"^(٥٧) . ولما توفى الفقيه القاضى على بن عبد الله بن محمد التلمسانى يوم قدومه مكة للحج سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م فى سعيه ، ودفن بالمعلاة فإن الفاسى يقول فيه : "ومن حجر قبره كتبت ما ذكرته من حاله ، وترجم فيه بالشيخ الصالح الزكى الفقيه العالم المفتى المدرس الأفضل الأكمل"^(٥٨) .

وقد سجلت بعض هذه المشاهد مواقف معينة أعلنها كاتبوها ووافقت عليها جماهير الأمة بمكة المكرمة ، يدل على ذلك ما ذكره المؤرخ الفاسى متصلا بما كتب

الأهمية التاريخية لشواهد قبور المعلاة

على قبر محمد بن أبى سعد على بن عبد الله الطبرى المكى (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م) بالمعلاة ، وترجم فيه "بالشباب المقتول ظلما جمال الدين ابن القاضى بهاء الدين" (٥٩) . وهو ما أكدته المصادر اللاحقة للعقد الثمين للفاسى ، إذ ذكر ابن فهد فى كتابه "اتحاف الورى بأخبار أم القرى" أنه قد قتل سنة (٧١٨هـ/١٣١٨م) ظلما محمد بن القاضى بهاء الدين أبى سعد على بن عبد الله الشيبانى الطبرى (٦٠) .

ومما سبق يتبين لنا قيمة هذه الشواهد فى الترجمة لمئات المشاهير والأعلام، وإضافة معلومات تاريخية مهمة ربما لا توجد فى مصادر التاريخ الأخرى .

وأسهمت حجارة الشواهد والأربطة (٦١) أيضا فى ضبط بعض الكلمات والأعلام ، ومن ذلك قول الفاسى : "من حجر قبره كتبت هذه الترجمة وضبط فيه بالثغرى" (٦٢) .

وبالجملة فإن فضل إثبات شهر وسنة الوفاة ، ونسبة المتوفى إلى أوطانهم أو أسرهم وقبائلهم أو إلى مهنتهم ووظائفهم يعود إلى ما دون وكتب فى شواهد قبور المعلاة التى حفظت أعلام ومشاهير مكة المكرمة من أهلها أو ممن نزلها (٦٣) ، وأدلل هنا بما نقله الفاسى من حجر قبر الشيخ الصالح الزاهد العابد شمس الدين محمد التبريزى المجاور بحرم الله تعالى (ت ٧٧٨هـ/١٣٧٦م) والمتوفى يوم السبت سابع عشرى رمضان ، وهو ما وجدته الفاسى فى حجر قبره بالمعلاة وأودعه فى كتابه "العقد الثمين" كذلك نقل الفاسى ترجمة محمد بن أحمد بن أحمد الملقب بالجمال بن الشهاب بن الشهاب والمعروف بقمر الدولة من حجر قبره بالمعلاة "وترجم فيه كل من والده وجدته بالقاضى ، وفيه أنه توفى يوم الأربعاء سابع شوال سنة ست وخمسين وسبعمائه" (٦٤) . وكان بعض هذه التراجم وافيا ، واستشهد هنا بنموذج لهذه التراجم الطويلة قبيل عصر المماليك مباشرة ، فى سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م وفيها توفى محمد ابن محمد بن على الوخشى المنسوب إلى وخش فيما وراء النهر "وترجم فى حجر قبره بالمعلاة بتراجم منها : الغريب السعيد الشهيد الملكى العالمى العادل ، المؤيد ، المظفر المنصور ، المجاهد فى سبيل الله ، تاج الدولة والدين ، اختيار الملوك

والسلاطين ، ملك الأمراء فى العالمين . وفى حجر قبره أنه توفى فى العشر الأول من ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وستمائة^(٦٥) . ومن الإضافات المهمة لشواهد القبور ما أضافه حجر قيد ولد أمير مكة سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م) لصاحب اليمن الملك المنصور عمر ابن على بن رسول ، حيث وجد الفاسى فى حجر قبر ولد الأمير بالمعلاة أنه كان استدار الملك المنصور "ومنه نقلت نسبه هذا"^(٦٦) .

دور الشواهد فى تصحيح بعض الأخطاء :

بالإضافة إلى ما سبق بيانه من استقلال شواهد قبور المعلاة بأخبار وحقائق جديدة ومعلومات فريدة لم تتيسر للمؤرخين إلا من خلال الوقوف على هذه الشواهد وقراءتها وتدوينها ، فإن هذه الشواهد أدت دورا آخر فى غاية الأهمية تمثل فى تصحيح بعض المعلومات المتصلة بهؤلاء الأعلام ، وصححت هذه الشواهد معلومات لا حصر لها حول بعض الأحداث قبل العصر المملوكى^(٦٧) وفى خلاله . ومن ذلك ما جاء فى الشهر الذى توفى فيه إمام الحنابلة بالحرم الشريف بمكة المكرمة عثمان بن موسى الطائى الإربلى (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م) . حيث ذكر الذهبى أنه توفى سنة أربع وسبعين وستمائة فى جمادى الآخرة بينما قال الفاسى : "وما ذكره - الذهبى - فى شهر وفاته وهم لأنى وجدت فى حجر قبره أنه توفى يوم الخميس الثانى والعشرين من محرم سنة أربع وسبعين وستمائة ، وفيه أنه ولى الإمامة من سنة أربع وعشرين وستمائة إلى أن توفى رحمه الله"^(٦٨) .

وقد كان التاريخ المدون على حجر قبر الشيخ محمد بن حجاج بن إبراهيم الحضرمى المعروف بابن مطرف الإشبلى نزيل مكة وشيخها حاسما فى الخلاف بين المؤرخين حول تاريخ وفاته ، إذ يذكر الذهبى أنه جاور بمكة ستين سنة وتوفى سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م وتبعه فى ذلك البيهقى فى تاريخه ، بينما ذكر العفيف المطرى أنه توفى فى سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م ، ويذهب الفاسى إلى أن هؤلاء المؤرخين جميعا واهمون فى تحديد وفاة هذا الشيخ الولى العارف، لأنه وجد على حجر قبره بالمعلاة أنه توفى ليلة الخميس ثالث شهر رمضان سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م ووجد هذا التاريخ مكتوبا بخط جده أبى عبد الله الفاسى فى تعليقه^(٦٩) .

الأهمية التاريخية لشواهد قبور المعلاة

كما أن حجر قبر نزيل مكة محمد بن داود الدمشقي (ت ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م) كان الفيصل في تحديد سنة وفاته ، حيث إن بعض المؤرخين ذكروا أنه توفي سنة ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م ، وهو غير صحيح ، ولذا يقول الفاسي : "ووجدت بخط بعض أهل العصر أنه توفي في مستهل صفر سنة تسع وستين وسبعمئة ، وهذا يخالف ما وجدته في حجر قبره من تاريخ وفاته" وكان قد ذكر أنه توفي سنة سبع وستين وسبعمئة من الهجرة ومن حجر قبره نقل وفاته^(٧٠) . ولهذا فإن ابن فهد اختار في ترجمته للقاضي ناصر الدين محمد بن داود أنه توفي سنة سبع وستين وسبعمئة ، وهذا مما وُجد في حجر قبره^(٧١) .

ومما سبق يتبين لنا أهمية هذه الأحجار في ضبط تاريخ الوفيات ، وغير ذلك، إذ إن هذه الأحجار صوبت أحيانا اسم العلم^(٧٢) والنسبة^(٧٣) ، إضافة إلى سنة أو شهر الوفاة^(٧٤) . وكان الصواب غالبا ما يكون في الحجر^(٧٥) .

وورد خبر واحد فقط في مصادرنا لم يكن الحجر فيصلاً في تحديد سنة الوفاة، إذ ذكر الفاسي أن محمد بن فرج المكي الملقب بالجمال صاحب بعض الربط والأسبلة بمكة والمدينة توفي سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م ودفن بالمعلاة "وفي حجر قبره أنه توفي في التاريخ من سنة تسع وثمانين وسبعمئة وهو غلط بلا ريب ، سبق إليه قلم الكاتب، فليعلم ذلك"^(٧٦) . وهو ما أخذ به ابن فهد إذ يقول : "وفيها - ٧٩٠هـ - مات محمد بن فرج في عشرى المحرم"^(٧٧) .

ولم يرد خبر آخر - في المصادر التي اطلعت عليها - اعتمد على غير حجر القبر في التحديد الصحيح لشهر وسنة وفاة أحد الأعلام . فقد كان الخلاف أحيانا في يوم ، بسبب الاختلاف الحاصل في مبدأ الشهر ، وهو ما أشار إليه الفاسي^(٧٨) ، وحدث بالفعل مع أحد الأعلام ، إذ وجد في حجر قبره بالمعلاة أنه توفي في مستهل ربيع أول سنة ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م وورد بالمصادر التاريخية أنه توفي في ليلة التاسع والعشرين من صفر سنة ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م ولم يحسم الفاسي تاريخ الوفاة^(٧٩) ، على أساس رؤية الهلال^(٨٠) . وقد ذكر ابن فهد التاريخين معا دون اختيار ، للسبب السابق

د. يسرى زيدان

نفسه فقال : " وفيها - ٧٥٣هـ - مات الشيخ عبد الله بن التاج الخطيب على بن عبد الله الطبرى ليلة التاسع والعشرين من صفر أو مستهل ربيع الأول" (٨١) .

وجاء خبر آخر حول الخلاف على لقب شاعر أديب ، هو على بن محمد الحنيدى ، وهو شاعر مجيد مشهور من بلاد اليمن وسكن مكة وتوفى يوم الأحد الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م ودفن بالمعلاة "ومن حجر قبره نقلت تاريخ وفاته ، ولقب فيه بنور الدين" (٨٢) بينما ذكر ابن فهد التاريخ السابق واليوم والشهر نفسه إلا أنه لقب الأديب بـ "موفق الدين" (٨٣) وأخذ بما ورد على الحجر من لقب الحنيدى لتواتر صحة أخبار ما كان يكتب على أحجار مقبرة المعلاة.

وهناك أخبار لا حصر لها توافقت المعلومات المدونة على حجر القبر مع ما دونه المؤرخون ، وأمثلة هنا بترجمة حجر قبر علاء الدين بن عرب القرشى المخزومى وكيل بيت المال (ت ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م) مع ما جاء عنه من ترجمة للمؤرخ ابن فهد (٨٤) .

إن قبور المعلاة بهذه الشواهد كانت معروفة تماما (٨٥) ، وقد زودت البحث العلمى بمعلومات غزيرة ؛ مؤكدة لما جاء فى المصادر التاريخية أو مصححة لها أو مرجحة لبعض مروياتها ، فضلاً عن تقديم مادة هائلة للأعلام والمشاهير من كافة الطبقات والوظائف والمهن ، وكل ذلك مفيد جدا عند البحث فى العديد من الموضوعات التاريخية والحضارية المرتبطة بتاريخ مكة المكرمة خاصة وبتاريخ الهجرة إليها من العلماء والتجار وغيرهم منذ القرن الخامس الهجرى وحتى نهاية عصر المماليك بصفة خاصة .

* *

الأهمية التاريخية لشواهد قبور المعلاة

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

* الإدفوى (كمال الدين جعفر ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) :

١- الطالع السعيد بأسماء نجباء الصعيد : تحقيق سعد محمد حسن . الدار المصرية للتأليف والترجمة.

* الأثرقي (محمد بن عبد الله الأثرقي) :

٢- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق رشدي صالح ، مكتبة الثقافة بمكة .

* ابن تفرى بردى : (جمال الدين يوسف ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) .

٣- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ج٨ تحقيق د. محمد محمد أمين . دار الكتب المصرية بالقاهرة .

* ابن الجزرى : (محمد بن إبراهيم ت ٧٣٨هـ/١٣٣٧م) :

٤- تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه . تحقيق د. عمر عبد السلام تدمرى . المكتبة العصرية. صيدا . بيروت .

* زين الدين الحلبي : (عمر بن أحمد ت ٩٣٦هـ/١٥٢٩م) :

٥- القبس الحاوى لغرر ضوء السخاوى . تحقيق حسن إسماعيل وخلدون حسن. دار صادر . بيروت .

* العز بن فهد : (عز الدين عبد العزيز بن عمر بن فهد ت ٩٢٢هـ/١٥١٦م) :

٦- غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام : تحقيق فهد محمد شلتوت . مركز إحياء التراث الإسلامى ، مكة المكرمة .

* الفاسى : (محمد بن أحمد ت ٨٣٢هـ/١٤٢٨م) :

٧- العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين . تحقيق فؤاد سيد ومحمد حامد الفقى ود. محمود الطناحى . مكتبة السنة المحمدية .

٨- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام . تحقيق د. عمر عبد السلام تدمرى . دار الكتاب العربى - بيروت .

* ابن فهد : (عمر بن فهد ، النجم ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م) :

٩- اتحاف الورى بأخبار أم القرى . تحقيق د. عبد الكريم باز . مركز إحياء التراث الإسلامى ، مكة المكرمة .

١٠- الدر الكمين بذيلى العقد الثمين . تحقيق د. عبد الملك دهيش . مكتبة الأسدى ، مكة المكرمة ١٤٢٥م / ٢٠٠٤م .

* القلقشندى : (أحمد بن على ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) :

١١- صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء . الهيئة المصرية للكتاب .

* ابن كثير : إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) :

١٢- البداية والنهاية . دار الغد العربى .

ثانيًا : المراجع :

* حسن الباشا

١٣- أهمية شواهد القبور كمصدر لتاريخ الجزيرة العربية فى "العصر الإسلامى، مع نشر مجموعة الشواهد بالمتحف الأثرى بكلية الآداب - جامعة الرياض. بحث ضمن كتاب "دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية" ج١ الرياض ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

* محمد قنديل البقللى

١٤- التعريف بمصطلحات صبح الأعشى . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م .

* يسرى أحمد زيدان

١٥- رؤى الهلال ومشاكلها فى مصر والشام والحجاز عصر سلاطين المماليك. بحث بمجلة المؤرخ العربى ، العدد الثالث عشر ، المجلد الأول ، مارس ٢٠٠٥م .

الهوامش

- (١) راجع د. حسن الباشا : "أهمية شواهد القبور كمصدر لتاريخ الجزيرة العربية ص ٨١-١٢٦".
ضمن كتاب "دراسات في تاريخ الجزيرة العربية" ج١ الرياض ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- (٢) راجع الإنفوى : الطالع السعيد ص ٤٢٣ .
- (٣) راجع الأنفوى : السابق ص ٤٧٤ وراجع خبرا آخر عن هذه الظاهرة بمصر عند زين السدين الشماخ : القبس الحاوى ج١ ص ١٠٩ .
- (٤) ابن الجزرى : تاريخ حوادث الزمان ولنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه ج٢ ص ٨٤ وراجع خبرا آخر بدمشق أيضا . ذكره ابن كثير : البداية والنهاية مجلد ٧ ج١ ص ٥٤٣ .
- (٥) راجع زين الدين الشماخ : القبس الحاوى ج٢ ص ٣٦٩ .
- (٦) راجع عمر بن فهد : الدر الكمين بذيل العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ج٣ ص ١٥٦٢-١٥٦٣ .
- (٧) للوقوف على حد المعلاة راجع الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ج٢ ص ٢٦٦ والفاسى : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج١ ص ٣٣-٣٤ .
- (٨) عز الدين بن عمر بن فهد : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج٢ ص ٩٦ .
- (٩) راجع الأزرقى : السابق ج٢ ص ٢٠٩ وراجع ص ٢٨٦ والفاسى : العقد الثمين ، ج١ ، ص ١٠٢ .
- (١٠) الأزرقى : السابق ج١ ص ٢١١ والفاسى : العقد للثمين ج١ ص ١٠٢ وشفاء الغرام ج١ ص ٤٥٧ . وراجع الدر الكمين لابن فهد ج٢ ص ١٣٤٤ .
- (١١) عن جبل الحَجُون ، جبل المعلاة ، مقبرة أهل مكة الواقع على يسار الدخول إلى مكة ويمين الخارج منها إلى جهة منى ، راجع الأزرقى : السابق ج٢ ص ٢٧٣ والفاسى : شفاء الغرام ج١ ص ٤٧١-٤٧٥ .
- (١٢) راجع الأزرقى : السابق ج٢ ص ٢١٢ والفاسى : العقد للثمين ج١ ص ١٠٣ وشفاء الغرام ج١ ص ٤٥٧ وجاء فيه ص ٤٩٣ أن هذه المقبرة عرفت بالحجون الأول تمييزاً لها عن المقبرة المعروفة بالأبطح التى تعرف بالحجون الثانى .
- (١٣) راجع الأزرقى : السابق ج٢ ص ٢١٢-٢١٣ .

- (١٤) الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ١٠٣ وشفاء الغرام جـ ١ ص ٤٥٨-٤٥٩ .
- (١٥) الفاسى : العقد الثمين جـ ٢، ص ٣٩٤ .
- (١٦) راجع عبد العزيز بن عمر بن فهد : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام جـ ٢ ص ٢٦ و ١٠٨ و ص ٣٠٥-٣٠٦ وراجع ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٣ ص ٤٨٢ و ٥٠٥ .
- (١٧) راجع الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ١٥٣ .
- (١٨) الفاسى : شفاء الغرام جـ ١ ص ٥٣٩ .
- (١٩) الفاسى : السابق جـ ١ ص ٥٣٩ .
- (٢٠) يقوم صاحبها بالتحدث فى الإقطاعات بمصر والشام والإشراف على تسجيل أسماء الجنود وأعدادها ونفقاتها . راجع القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٢١-٣٢٩ . وراجع محمد فنديل البقلى : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٣٤٢-٣٤٣ .
- (٢١) الفاسى : شفاء الغرام جـ ١ ص ٥٣٩ .
- (٢٢) الفاسى : شفاء الغرام جـ ١ ص ٥٤٧ .
- (٢٣) الفاسى : السابق جـ ١ ص ٥٤٧ .
- (٢٤) راجع فى ذلك الفاسى : السابق ج ١، ص ٥٤٥ و ٥٤٧-٥٤٨ وابن فهد : اتحاف الورى بأخبار أم القرى جـ ٣ ص ٤٨٢ و ٥١١ و ٤٠٨ . وعن آبار مقبرة الشبيكة راجع الفاسى : شفاء الغرام جـ ١ ص ٥٤٧ .
- (٢٥) للوقوف على ترجمة مفصلة له راجع عز الدين بن عمر بن فهد : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام جـ ٢ ص ٣٩٢-٤٦٧ .
- (٢٦) عز الدين بن عمر بن فهد : السابق جـ ٢ ص ٤٥١-٤٥٢ .
- (٢٧) ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٤ ص ٣٤٧ .
- (٢٨) راجع عن ترجمته عز الدين بن عمر بن فهد : السابق جـ ٢ ص ٥٠٦-٦٣٣ .
- (٢٩) عز الدين بن عمر بن فهد : السابق جـ ٢ ص ٦٠٣ .
- (٣٠) عز الدين بن عمر بن فهد : السابق جـ ٢ ص ٥٩٧ .
- (٣١) راجع عز الدين بن عمر بن فهد : السابق جـ ١ ص ٥٩٢ و جـ ٢ ص ١٥٢ و ١٩٣ و ٥٩٧ و جـ ٣ ص ٢٠٧-٢٠٨ وراجع ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٣ ص ٤٥ .

الأهمية التاريخية لشواهد قبور المعلاة

- (٣٢) ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٣ ص ٥٢٢ .
- (٣٣) راجع صور هذه الأحجار فى كتاب "أحجار المعلاة الشاهدية بمكة المكرمة" الصادر عن وكالة الآثار والمتاحف ، بمكة المكرمة . وهو عبارة عن صور لهذه الأحجار .
- (٣٤) الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ٤٢٣ .
- (٣٥) ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٣ ص ٦٦ .
- (٣٦) راجع للفاسى : العقد الثمين جـ ٥ ص ٣٩٨-٤٠٠ .
- (٣٧) الفاسى : السابق جـ ٢ ص ٢٩٥ .
- (٣٨) الفاسى : السابق جـ ١ ص ٤٣٤ .
- (٣٩) الفاسى : السابق جـ ١ ص ٤٢٢ .
- (٤٠) الفاسى : السابق جـ ٥ ص ٣٧٥ .
- (٤١) للوقوف على ترجمته راجع ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٣ ص ٤٥ . وعز الدين بن عمر بن فهد : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام جـ ١ ص ٥٨٩-٥٩٥ .
- (٤٢) ابن فهد : السابق جـ ٣ ص ٤٥ .
- (٤٣) عز الدين بن عمر بن فهد : السابق جـ ١ ص ٥٩٣ .
- (٤٤) الفاسى : العقد الثمين جـ ٤ ص ٢٠٥ وراجع قولاً آخر مثابها لهذا القول الفاسى : السابق جـ ٦ ص ١٥٤ .
- (٤٥) ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٣ ص ١٨٦ .
- (٤٦) ابن فهد : الدر الكمين بذيل العقد الثمين جـ ١ ص ١٧٩ .
- (٤٧) ابن فهد : الدر الكمين جـ ١ ص ١٠٠ وراجع خبراً آخر لدى الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٩٤ .
- (٤٨) ابن فهد : المصدر السابق نفسه جـ ١ ص ٣٩٦ .
- (٤٩) راجع ابن فهد : السابق نفسه جـ ١ ص ٤٤٥ و ٤٧٧ و ٧٠٣ و جـ ٢ ص ٧٢٠ و ٨٤٦ و ٩٣٦ و ٩٣٧ و ١١٧٤ و ١١٨٨ و ١٢٧٥ و ١٢٨٩ و ١٦٢٣ . وراجع الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ٤٢٢ و جـ ٢ ص ٢٨ و ٥٢ و ٩٦ .

د. يسرى زيدان

(٥٠) راجع الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٣٢٨ و جـ ٦ ص ٢٧٥ و ٣١١ و راجع جـ ٤ ص ١٩٤ و ٢٢٥ .

(٥١) راجع الفاسى : العقد الثمين جـ ٦ ص ٢٨٥ و ٢٩١ و ٣٣٨ و ٣٦٣ . وابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٨ ص ٢٠ .

(٥٢) راجع الفاسى : السابق نفسه جـ ٦ ص ٢٨٦ و ٣٦٢ . و راجع جـ ٤ ص ٦٨ و ص ١٩٣ و ٢٢٩ و ٣٢٨ و ٣٨٦ .

(٥٣) راجع الفاسى : السابق نفسه جـ ٦ ص ٢٨١ و راجع جـ ١ ص ٤٧٤ .

(٥٤) راجع الفاسى : السابق نفسه جـ ٦ ص ٢٧٠ و راجع ص ٢١٧ و ٢٣٥ و ٢٥٢ .

(٥٥) راجع فى ذلك الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ٢٩٠-٢٩١ و جـ ٢ ص ٧٥ .

(٥٦) الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٣٢٨ و راجع خبرا آخر جـ ٣ ص ٢٠٢ .

(٥٧) الفاسى : السابق نفسه جـ ٦ ص ١٤٤ .

(٥٨) للفاسى : السابق نفسه جـ ٦ ص ١٨٤ و راجع جـ ٥ ص ٩٧ وللوقوف على هذه الظاهرة راجع

الفاسى : السابق جـ ١ ص ٢٩٥ و جـ ٢ ص ٩٤ و ٣١٨ و جـ ٦ ص ١٠٨-١٠٩ و ١٨٢ و

١٨٣ و ٢٧٥ . و راجع نموذجاً آخر زمن المماليك . ابن تغرى بدوى : المنهل الصافى جـ ٨

ص ١٩ .

(٥٩) الفاسى : السابق جـ ٢ ص ٢٥ .

(٦٠) ابن فهد : اتحاف الورى بأخبار أم القرى جـ ٣ ص ١٦١ .

(٦١) راجع فى ذلك الفاسى : العقد الثمين جـ ٦ ص ٢٠٤ .

(٦٢) الفاسى : السابق جـ ٥ ص ٣١ .

(٦٣) الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٤١٦ .

(٦٤) الفاسى : السابق جـ ١ ص ٢٨٥-٢٨٦ .

(٦٥) الفاسى : السابق جـ ٢ ص ٣١٩ و راجع من ص ٣١٨ . و راجع . نموذجاً آخر الفاسى :

السابق جـ ٦ ص ١٨٢ جـ ٣ ص ٤٢ و ٣٦٢ .

(٦٦) الفاسى : السابق جـ ١ ص ٣٨٧ و راجع من ص ٣٨٦ و راجع ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٣

ص ٦٧ .

الأهمية التاريخية لشواهد قبور المعلاة

- (٦٧) راجع الفاسى : السابق جـ ١ ص ٤٥٢-٤٥٣ وجـ ٦ ص ١٨١ و ٣٣٥ و ٤٦٦ .
- (٦٨) الفاسى : السابق جـ ٦ ص ٥٢-٥٣ .
- (٦٩) الفاسى : السابق جـ ١ ص ٤٥٢-٤٥٣ .
- (٧٠) الفاسى : السابق جـ ٢ ص ١٦ .
- (٧١) راجع ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٣ ص ٣٠٥ .
- (٧٢) راجع فى ذلك ابن فهد : الدر الكمين جـ ٢ ص ٧٦١ وراجع أيضا نموذجًا آخر الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ٢٩٠ .
- (٧٣) راجع فى ذلك الفاسى : السابق جـ ٦ ص ٤٦٦ .
- (٧٤) راجع فى ذلك الفاسى : السابق جـ ٦ ص ١٨١ و ٣٣٥ .
- (٧٥) راجع الفاسى : السابق جـ ٦ ص ١٨١ .
- (٧٦) الفاسى : السابق جـ ٢ ص ٢٥٥ وراجع من ص ٢٥٤ .
- (٧٧) ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٣ ص ٣٧١ .
- (٧٨) راجع الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٤٠٧ .
- (٧٩) الفاسى : العقد الثمين جـ ٥ ص ٢١١ .
- (٨٠) ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٣ ص ٢٥٩ .
- (٨١) راجع بحثًا للمؤلف نشر بمجلة المؤرخ العربى ، العدد الثالث عشر ، المجلد الأول ، مارس ٢٠٠٥م بعنوان "رؤى الهلال ومشاكلها فى مصر والشام والحجاز عصر سلاطين المماليك" ص ١٠٧-١٣٨ للوقوف على الخلاف حول الأهلة وأثر ذلك فى تحديد الأشهر .
- (٨٢) الفاسى : العقد الثمين جـ ٦ ص ٢٦١ .
- (٨٣) ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٣ ص ١٤٥ .
- (٨٤) راجع على سبيل المثال : ابن فهد : الدر الكمين جـ ٢ ص ١٣٤٤ .
- (٨٥) راجع الفاسى : العقد الثمين جـ ٦ ص ٢٢٣ .

* * *